

عشائر البدو الرحل وروايتنا نحوها

للدكتور خالد بك الخطيب

«إن البحث الذي تقدمه لقراءنا في هذه الصفحات ، لمن أمتع البحوث وأنفعها للشرقيين عامة ، والعرب خاصة ، وقد أنقاه الدكتور خالد بك الخطيب ، أحد كبار المجاهدين السوريين محاضرة في مدرسة التجهيز بمدينة عمان (شرق الأردن) وتفضل غصنا بنشره فنشكره » المحرر

أسباب تدهور الأمة العربية :

إن الأسباب التي أدت الى تدهور الأمة العربية إلى هذا الدرك كثيرة، وجدير بالعرب أصحاب ذلك الماضي المجيد أن يعالجوا هذه الأسباب معالجة حكيمة توصل الى طرق فعالة تنقذ هذه الأمة من بلائها وتعيد إليها مجدها وعزتها الغابرين .

وقد خطرت لي - يوم كلفتني إدارة هذه المدرسة المحترمة بالقاء محاضرة في ناديها - أن أعالج جهد المستطاع ناحية من نواحي هذا الضعف في هذه الأمة المنكودة الحظ ، وسرعان ما تذكرت حالة هذه العشائر المبعثرة في فيافي الصحراء وما آل إليه حالهم من الانحطاط ، وقد كانوا سند العروبة الأقوى . فعن لي أن أذكر الأمة - أو بالأحرى الطبقة المفكرة في الأمة - بواجبها نحوهم بكلمة موجزة قد لا آتي بشيء جديد فيها ، ولكنها على كل حال ستكون بمثابة التذكير ، ولعل الذكرى تنفع المؤمنين . وإنني أأمل أن تكون هذه الكلمة فاتحة البدء لطرق أدبائنا الأفاضل ، ورجال نهضتنا العاملين ، هذا الموضوع الحيوي ، ومعالجته بما يستحقه من العناية ، وأن تكون وسيلة لحمل الحكومات العربية على التفكير فيه بصورة جدية ، والقيام بما يجب القيام به نحو هذا الفريق من الأمة ، لإخراجه من هذه الحياة المظلمة الى حياة ينيرها العلم والثقيف .

فإن من أعظم أسباب انحطاط العرب شأنًا وأشد هذه الأمراض فتكًا ، هو بقاء هذه العشائر في ديجور قاتم من الجهل وهم يكونون ثلث مجموع هذه الأمة تقريبًا . فإذا ما أتيح لك أن تزور هذه العشائر في مضاربها ، وتدرس حياتها وتدقق حالتها : الاجتماعية والعلمية ، وتلاحظ درجة تقدمها الفكري عن كثب - لرجعت وأنت تحمل بين طيات نفسك عاطفتين متضاربتين : عاطفة تحملك على التفاخر - وأنت عربي - بأخلاق هذه الأمة ، ومزاياها الفطرية السامية

التي تناقلتها بالتوارث عن آباؤها الأولين ، فتردد مترنماً ما قاله الأستاذ خليل بك مطران عن الفطرة العربية في كتاب بعث به لصديق له إذ قال :

« جل فضل الله بما خص به الفطرة العربية من مزايا لم يودع منها سجايا الأمم الأخرى إلا قليلا ، وعاطفة شفقة توقد في صدرك عوامل التألم لبقاء هذه المخلوقات البريئة في معزل عن التطورات الاجتماعية الحديثة التي أصابت بقية الشعوب العربية المتحضرة منها بسهم وافر ، فغدوا كأنهم يعيشون في عالم غير عالمنا ، وأصبحوا كما تراهم عضواً أشلا في شموع هذه الأمة . ومن العار على الطبقة المفكرة من الأمة أن لا تشعر بواجبها نحو إصلاح هذا العضو المشلول ، وإنعاشه لتعيده إلى الحياة » .

ما المقصد من قولي « واجب » ؟

ألفنا أن نسمى واجباً ما نؤمر بإجرائه، حتى ولو كان ضد الواجب في الحقيقة ، ولم نعتد الشعور بالواجبات إلا عن طريق القوة التي تفرض علينا فرائضها فرضاً ، وكثير من الواجبات الالزامية التي يتحتم علينا الشعور بها والقيام بأدائها قبل كل شيء آخر ، نهملها وربما لا تأتى لنا على بال باعتبار أنها واجب ، وهذا لعمري نقص في تكاملنا الأخلاقي يجب أن نعى لتلافيه ، ويجب أن نعلم أنفسنا على الشعور بالواجب عن طريق الواجب لا عن طريق القوة .

وهذا الواجب الذي نحن بصددده ، والذي يتحتم على الأمة القيام به نحو هذه العشائر النائية في عالم الجهل المظلم ، إنما هو من نوع تلك الواجبات الشعبية الالزامية ، وليس هو بواجب حكومي ، بل ربما رأت الأمة وهي تقوم بأدائه كثيراً من الصعاب والعثرات تلقياً في سبيلها الحكومات ، لأنه ما كل يوم تتفق مصلحة الأمة ومصلحة الحكومة ، خصوصاً في بلاد قدر عليها أن تكون محكومة في أمورها بأرادة غريبة عنها .

ويقسم واجبنا نحو هذه العشائر الى نوعين : واجب إنساني محض ، وآخر وطني له قيمته في كياننا القومي . فإن خشونة هذه المعيشة الجافة التي يقاسى مضيقها هذا البدوي البائس ، وما إلى ذلك من عناء مستمر في حياة متقلبة لا استقرار فيها ، وتعرض دائم لفتك الأمراض السارية وتحمل ويلات التناسل الناتجة عن جهل مطبق في أصول التوليد الفنى ، وكثرة وفيات الأطفال الناتجة عن سوء التربية التي لا يعرفون لها معنى صحيحاً ، وكثرة الإصابات بالأمراض التي كثيراً ما تترك تشوهاً في أجسامهم — كل ذلك يحملك على الشفقة عليهم باعتبارك إنساناً يعطف على أخيه الإنسان .

نرى المثرى الأمريكى يحمل نفسه عناء الاسفار الطويلة ليأتى من بلاده النائية الى بلادنا التي لا تربطها بها أية رابطة سوى الانسانية المجردة ، فيصرف المال بسخاء : لتعليم يقيم ، أو تسهيل

إيصال المياه إلى قرية ، قد يتحمل أهلها شيئاً من العناء في استشفائهم . ويعتقد أنه بذلك يخدم الإنسانية ، وأين هذا من ذلك الذي تكلفك به الإنسانية نحو أخيك البدوي البائس ؟ ثم ليس الأقربون أولى بالمعروف ؟ !

هذا واجبنا نحوهم من الوجهة الإنسانية ، أما من الوجهة الوطنية فلا أظن أنني بحاجة إلى الأسهاب فيه ، لأنني اعتقد أن الجميع يقدرّون ما لتقوية عناصر الأمة الاجتماعية من الأثر العظيم في تقوية كيانها القومي .

في كل يوم نقرأ أمثلة جديدة عن اهتمام الأمم الراقية في تكثير معيار التناسل الصالح فيها ، وتكثير عدد أبنائها لتعزّز بقوتهم من عادات الأيام ، في حين أننا نهمل تلك مجموعتنا بل ربما أكثر من الثلث فنتركه عضواً أشلاء ، لا تقع للوطن منه ، بل ربما كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة .

وما يدريك لو عثيت بتثقيف هذا المجموع المنعدم وربما كان لك منه الغوث المنتظر ، ربما خرج لك منه الأدمغة التي تعرف كيف السبيل إلى الخلاص . إن المرحوم عبد المحسن السعدون مثل الوطنية المحسم ، ورئيس وزارة العراق السابق ، والمتحرف في سبيل الذود عن كرامة امته - هو أحد أفراد هذه العشرات الذين قدر لهم أن يردوا مناهل العلم ، فكان علماء من أعلام الوطنية الخفافة ، وعاملاً فيها من كبار العاملين .

وما يدريك لو ثقفت هذا المجموع المنعدم ، ربما خرج للبشرية منه الأدمغة التي قد تؤدي لها أجل الخدم ... أليس البدوي هو الذي أوجد علم الفلك ، ووضع له قواعد ، وهو الذي ابتكر طريقة تعيين المواقيت ، واخترع الساعة ، واكتشف ملح البارود ، وجلا أسرار الكيمياء ، وجعلها علماً قائماً بذاته بعد أن كانت البشرية تجهل كل شيء عن الكيمياء ؟ ثم أليس البدوي هو الذي وضع أسس الصيدلة ، وفن التداوي ، وأصول الجراحة ، وأول من اكتشف طريقة التداوي بالزئبق ، وأول من دأوى الامراض العصبية بالكهرباء ، بواسطة نوع من السمك يقال له « الرعاد » ؟

هذا بعض ما قام به العربي من الخدم العلمية الكثيرة العدد لهذه البشرية يوم كانت غارقة في ظلمات من الجهل ، فمن الظلم إذن أن ندع هذه القابلية الممتازة تضيع اليوم بين البراعة في التحقق من هوية السواد المقبل ومعرفته فيما إذا كان صديقاً أو عدواً ، وبين المهارة في اقتفاء الأثر وانتخاب الارض المعالحة لرعى الابل وحلب الشاة وصنع السمن وجز الصوف .

فهذان الواجبان وحدهما كافيان لملئنا على ان تنظر نظرة جدية في امراخاج هذا المجموع الأشل من امتنا من هذه الحياة المظلمة الى حياة تنير ارجاءها الثقافة وحسن التربية الصحيحة .

مزاييا العرب الفطرية :

ان العشائر الرحل هم العرب الحقيقيون، واليههم ترجع أصولنا، وليس من الانصاف أن لانهم لأمرهم ولا نتفهم فتغذى فيهم تلك المزاييا السامية - التي يصفها شاعر القطرين بذلك الوصف البليغ العادل - بغذاء العلم لتؤهلها لخدمة العرب والانسانية معاً .

لا يمكن تقدير مزاييا الامة الفطرية حتى تقاس بمزاييا امة اخرى، فيظهر اذ ذلك الفرق بيننا واليك مثلاً واحداً يؤكده ذلك بأننى لم أبلغ فيما أرويه عن الفطرة العربية وقابليتها للتنقيف والاصلاح . منذ مائة سنة تقريباً انتشر داء الجدري في البلاد الانجليزية - وكانت لاتزال تلك البلاد في عالم الفطرة الاولى - ولم يكن الشعب الانجليزى يعرف يومئذ شيئاً عن عملية التلقيح ضد الجدري ، فلما أخذت الهيآت الموكلون اليها امر التلقيح تشرع في عملياته ، كانت تصادف من الشعب مما نعة هائلة ، وكثيراً ما كانت عرضة لفتك وانتقامه ، وكانت تذهب المساعي العظيمة التي تبذل في سبيل اقناعه بفائدة العمل سدى ، حتى أنهم كانوا يقولون على سبيل المثل في التهويل : « التلقيح وبونا بارت ألد أعداء انجلترا » .

قس هذا الحادث بما وقع بين عشائرننا منذ برهة قصيرة، وقدر بنفسك الفرق بين الفطرتين : منذ بضعة اشهر تقريباً حدثت بعض الاصابات بداء التيفوس بين بعض عشائر الشرق العربى، فقامت دائرة الصحة هنا بواجب التلقيح ضد هذا الداء، وكانت تلقى من تلك العشائر - بعد أن أفهمتهم فائدة العمل - كل مساعدة على إتمام مهمتها . هذا المثل - على بساطته - يظهر لك الفرق ما بين : الفطرة العربية ، وبين فطرة امة تعد نفسها أعظم أمة على وجه الارض ، فليس من المروءة اذن اهمال امتنا وفيها اكمل فطرة ممتازة .

حياة البدوى وأخلاقه الحاضرة :

لا مجال للتبسط هنا في شرح كل ناحية من نواحي الحياة عند هذه القبائل كل على حدة، فجميع نواحي الحياة عندهم ظلمات تكاثف بعضها فوق بعض فهم يتخبطون في طيات هذه الظلمات تحبط الاعمى الضائع ، وأجدر بى أن يكون كلامى عاماً .

ليس هناك إحصاء صحيح يقف منه على حقيقة عدد النفوس عندهم ، ولكننا نستطيع القول على وجه التقريب، أنهم يشكون ثلث مجموع الامة العربية ، وأسما هذه القبائل أمر يعرفه أكثر الناس فلا حاجة لذكره هنا .

أما أخلاقهم فمن المعلوم أن أخلاق المرء أى (مجموع طبائعه) تتطور بتطور بيئته، فقد تتكامل وتنمو نمواً حسناً ، وقد تضعف وتساء . ولا ريب في أن للغرائز الوراثية تأثيرها

القوى في سوق طبائع المرء إلى ناحيتها ، ولكن من الثابت أن البيئة هي التي تسيطر على تشكيل هذه الطبائع وتلبسها لباسها ، وعلى هذه القاعدة يجب أن لا تفاخر كثيراً بأخلاق العرب الحاضرة المفاخرة التي ترتاح اليها النفوس . هذا إذا أردنا أن لا نخدع أنفسنا ، وإذا كان مبدؤنا تقرير الحقيقة والاعتراف بها . العرب أمة مجيدة منذ البداء وأخلاقها الفطرية أخلاق طيبة بلا ريب : فكرم العربي واجارته المستغيث ، وتقانيه في سبيل حماية الدخيل ، وإيائه ووفائه ، وجراته وشجاعته ، ونفوره من الأثر والاستعباد ، وتوق نفسه إلى الحرية الكاملة كل ذلك أمر يقره الجميع ، ولقد كان صحيحاً تعليل العلماء الاجتماعيين ذلك الأمر إذ قالوا : إن هذه الصفات الأخلاقية العالية التي يتصف بها البدوي ، ناتجة عن انسق حياته في البادية ، غير أن ذلك كان قبل هذا العصر الاقتصادي الشحيح ، وقبل ان تقسد دنائير المستعمرين تلك النفوس الطيبة النقية فتتلاعب بها كما يتلاعب الاطفال بالكرة . فانك اليوم - على الرغم من بقاء البعض منهم - تلازمه غرائزه الأساسية الطيبة - ترى ان أكثرهم يتصفون بصفات لا تلبث متى تأكدتها ان تسمم وتفر منها تفورك من أقبح الخبائث . خذ لذلك مثلاً : ان أى أجنبي يستطيع بقليل من المال ان يسخر الكثيرين من هؤلاء المساكين ويستخدمهم ضد الكثيرين من اخوانهم ومن هم من أبناء دينهم وجلدتهم ... ان أى أجنبي قادر يذل القليل من الذهب الوهاج ان يجد بينهم العشرات بل المئات الذين يتطوعون عن طيبة خاطر للتجسس على امتهم وبلادهم ، مع أن التجسس احط عادة دنيئة عند العرب منذ القدم ، وهذه وحدها سيئة لعمري كافية لأن تمحو فضل الف حسنة من الحسنات التي ذكرناها : كالكرم والوفاء والشجاعة مثلاً . وليس من العدل أن أهمل القول هنا بأن للعرب المتحضرين أيضاً حصّة وافية من هذه المأساة . أقول ذلك والاسف لملا جوانحي . فاذا ذهبت أيها العربي إلى بلاد أخرى وبذلت الوفاء الجنيئات لتستأجر من أهلها من يتجسس لك عليها لتعذر عليك ذلك ، ولكن الأجنبي في بلادنا في برهة قصيرة و يذل القليل من المال يستطيع استخدام الكثيرين للتجسس على بلادهم ، وهذا لعمري من دواعي الألم الممض

فأالر الخطيب

واميك .. هل أدية ؟ ..

إنك ستؤديه بلا ريب ..

أبها الشباب المثقف !!

ان مجلة « المعرفة » سبيلكم الى الثقافة الصحيحة ، وهي المجلة المصرية التي يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنكم ، فليكن تعضيدكم إياه .. مشجعاً له ولغيره على إحياء القومية المصرية .

هذا واميك فادوه ..